نهاية الوجود البرتغالي والصليبية بالمغرب

بقلم الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله

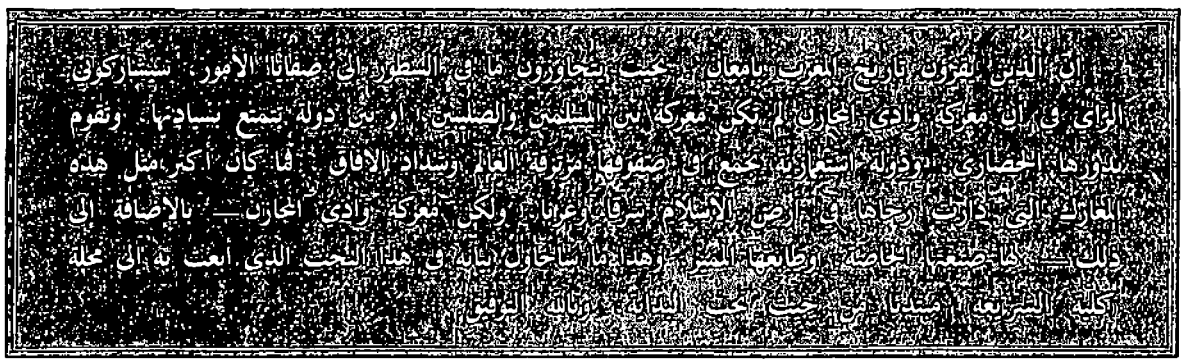

تمخضت الحملة الصليبية عن وقوع المغرب في منطقة نفوذ البرتغاليين كرد فعل لاحتلال المغاربة للأندلس طوال ثلاثمائة سنة وحملات القراصنة الذين اتخذوا من بعض المراسي المغربية ملجأ لأساطيلهم. وقد كانت الرغبة في فصل النصريين عن العدوة الجنوبية تمهيدا لنفيهم من بواعث هذا الاحتلال الذي فتح أيضا منافذ اقتصادية للبرتغاليين باستغلال قمح وأصواف وخيول مناطق الجنوب الثرية. وكانت قلعة سانطا كروزا بأكادير قاعدة برتغالية في المحيط الأطلنطيكي، وقد استغرق البرتغاليون نحوا من ثلاثة أرباع قرن في احتلال مراسي الشمال إلى نهر سبو وما يقاربها في ضم مراسي الجنوب من مصب أم الربيع إلى السوس، وبذلك قبضوا على زمام معظم المرافئ المغربية (عدا سلا وبادس) التي استحالت إلى حصون تحت ضغط الغارات الوطنية. وأقيمت أسقفيات كاثوليكية في سبتة وطنجة وآسفي ولكن هذا الهيكل قد تضعضع بسبب الانتفاضات الشعبية التي ساندت تطوان والشاون والعرائش والقصر الكبير غير أن تخاذل بعض القبائل في الجنوب فسح المجال مؤقتا لحماية برتغالية فعلية ونفوذ اقتصادي خطير من السوس إلى درعة ومن آسفي إلى الرحامنة وأرباض مراكش، مما عزز ثورة السعديين منذ عام 915هـ بانضمام أمراء هنتانة واحتلال مراكش 930هـ) حيث حول أبو عبد الله البرتغالي مواصلة تطويق أبي العباس الأعرج في المدينة، ولكنه فوجئ بثورة في الشمال فعاد إلى فاس وتوفي بها حوالي 932هـ وولي بعده أخوه أبو حسون الذي ما لبث أن خلفه أحمد بن أخيه محمد البرتغالي. وتولى الملك ببيعة أهل فاس (932هـ) وقد عمل أبو العباس على مهادنة كل من البرتغاليين في الهبط والسعديين في الجنوب بعد وقعة إنماي قرب مراكش (935هـ). ولكن الجماهير ظلت في

عراك عنيف مع المسيحيين تبلور في وقائع منها الغزوة التي أججها قرب أصيلة القائد عبد الواحد العروسي (940ه)، وكذلك في الجنوب حيث انبرى الأعرج السعدي من جديد لمجابهة أحمد الوطاسي في أبي عقبة بوادي العبيد بعد أن عقد الوطاسيون الصلح مع البرتغاليين لثلاث سنوات في آسفي والجديدة وأزمور. وقد تمخضت انتفاضة الجماهير في أعقاب السعديين عن انهزام أبي العباس الوطاسي (943ه)، وتوالت الأحداث فانتزع محمد الشيخ الملك من أخيه الأعرج وزحف نحو الشمال فاحتل مكناسة (955هـ) ثم فاسا في السنة التالية، واعتقل الامير الوطاسي مع فلول من قومه نقلوا إلى الجنوب بينما فر أبو حسون إلى الجزائر لاجئا عند الأتراك الذين كان نفوذهم قد بدأ يمتد على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط، فساعدوه على استرجاع فاس ولكن محمدا السعدي ما فتىء أن استنفر الحشود العارمة في نفس السنة فهاجم المدينة وقتل أبا حسون (961ه)، فكان موته نهاية سلسلةمن المآسي انقرضت بها الدولة المرينية كما انهارت خلالها معالم الفردوس المفقود.

وكان لسقوط الأندلس وغزو البرتغاليين والإسبان لسواحل افريقيا الشمالية رد فعل قوي في نفوس الجماهير التي انتفضت في الحواضر والبوادي للجهاد في معركة صليبية عنيفة اتخذت المغرب مسرحا لها، وقد أذكى هذا الاعتداء الروح العسكرية وبغض الأجنبي المغير وتبطنت هذه الوجهة الساذجة باتجاه صوفي جديد نما وترعرع ضمن وحدة شعبية شاملة قاد فورتها العلماء والصوفية والأشراف، وقد أصبح أقطاب التصوف في هذه الفترة جهابذة العلوم والفنون، وستتبلور الزعامة العلمية خلال القرن الحادي عشر في ثلاثة من قادة الصوفية(1) وانضاف إلى ازدهار الثقافة الإسلامية إشعاع روحي جعل من الأمة الواعية كتلة متراصة في وجه العدو.

وفي هذا الخضم العارم انبرى السعديون لقيادة الثورة تحت شارة الانتساب لآل البيت، وكان البرتغاليون قد نفذوا إلى السوس حيث انتشرت الفوضي لانشغال الوطاسيين بالجهاد في الشمال، فبايع الناس محمد القائم بتيدسي قرب تارودانت (916ه)، وتأجج العراك ضد المسيحيين في حاحة والشياظمة وعبدة حيث اصطدم السعديون ببحيى بن تافوت حليف البرتغاليين بآسفي فانكسروا أول الأمر ولكن تدخل أحمد الأعرج أنقذ الموقف فلجأ البرتغاليون إلى جحورهم بالمساء واستتب نفوذ الأمير عقب وفاة والده (923ه) فشمل مراكش اثر درعة والسوس بعد القضاء على الناصر بن شنتوف عامل المدينة، وكان الأعرج قد تولى ولاية العهد (918ه)، وظل السعديون يواصلون الجهاد إلى أن زحف على مراكش فانهزم في التحام شديد بتادلا (942ه)، واتسعت شبكة المملكة السعدية في الجنوب، ولكن التاريخ أبى إلا أن يعيد نفسه، فاختلف الأخوان الأعرج ومحمد الشيخ المهدي الوزير المستخلف بالسوس، فاستقل هذا بالملك (946ه) وزج بأخيه في غياهب السجن، واكتمل تحرير الثغور الجنوبية باحتلال فونتي (947ه) واختطاط مرساها (أكادير) ثم الدخول إلى آسفي وأزمور (948ه) اللتين نزح عنهما البرتغاليون، وكذلك إخضاع مراكش الحيرى التي ظلت متأرجحة بين السعديين والوطاسيين.

وفي هذه الفترة وقعت مهادنة بين الوطاسيين والسعديين (942ـــ955ه)استغلها هؤلاء لتعزيز تحالفهم مع صنهاجة الدلائيين بالاطلس الأوسط وأمراء هنتاتة بالأطلس الكبير، وبعض صوفية الريف الذين خذلهم الوطاسيون في حركة الجهاد ضد البرتغاليين، وقد ظهر السعديون بمظهر أبطال الجهاد الأشاوس وذاع صيتهم في طول البلاد وعرضها فأحبهم الناس.

وقد حاول خلفه عبد الله الغالب عند مقتل والده (عام 965هـ ـــ 1557م) الزحف ضد البرتغاليين في البريجة (الجديدة أو مزغان) في نفس السنة بقيادة ولده

1) هم حسب نشر المثاني السادة محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن أبي بكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي صاحب زاوية المخفية (راجع كتابنا معطيات الحضارة ج . 1 ص 156)

المسلوخ فَمُنِيَ الحُصار بالفشل، وبعد وفاة الغالب تولى ولي عهده محمد المتوكل (981هـ—1574م).

وقد واجه من اعتلائه العرش مشكلة خطيرة هي وجود عمه عبد الملك وأحمد في القسطنطينية لاجئين عند السلطان سليم يستحثانه لإمدادهما بالجيش والعتاد لاعتلاء أريكة المغرب الأقصى.

وقد امتاز مولاي عبد الملك بأصالة في الرأي نتجت عن تقلباته في الخارج واحتكاكه بشتى الحضارات التي كانت تتفاعل إذذاك في الأمبراطورية العثمانية حيث أجاد الإسبانية والإيطالية والتركية.

وبعد مبايعته بفاس اتجه نحو مراكش في جيش جديد تعزز قوامه الفاسي والأندلسي بأتراك وجزائريين (زواوة) وعرب واصطدم الأميران في وادي شراط فانهزم المتوكل وسار الأمير أحمد في أعقابه إلى مراكش فانحاز إلى الأطلس بينما دخل أبو العباس إلى المدينة وتبعه أبو مروان لأخذ البيعة (984هـ) ثم استخلف أخاه بفاس وكلفه بتجهيز العرائش لمواجهة حركة البرتغاليين بأصيلا، وتعقب أبو مروان المتوكل في سلسلة من الانتصارات إلى أن يئس فتوغل في شعاب الأطلس نحو بادس وطنجة لاستصراخ البرتغاليين حيث وصل إلى اشبونة فتطارح على ملكها الشاب دون سبستيان الذي كانت نفسه الطموح تحدثه بغزو المغرب في حملات صليبية جديدة، وحسب الأمير المغرور الفرصة سانحة فاهتبلها رغم نصح رجال الدولة بالعدول عن هذه المغامرة الزائفة، وقد سبق له أن زار سبتة في السنة التي اعتلى المتوكل أريكة العرش بدعوى الصيد في الأرباض، كما خاض معركة في حوز طنجة ضد كتيبة من فرسان السلطان آنذاك، واشترط سبستيان مقابل الإعانة امتلاك أصيلا وتبعية المملكة المغربية للبرتغال، وتنافس أبو مروان لإحباط مسعى ابن أخيه فاقترح على ما قيل التنازل عن ثغر مغربي تختاره اشبونة مع مقاطعة تبلغ مساحتها ثلاث عشرة مرحلة حول الجديدة وسبتة وغيرهما، غير أن الحشود(1) البرتغالية كانت قد تجمعت في طنجة وأصيلا (ربيع الثاني عام 986هـ) وَبَرَّرَ المتوكل هذه الحملة الصليبية على المغرب وفتح أبواب أصيلا للمسيحيين — وكانوا قد جلوا عنها أيام محمد الشيخ — بتقاعس المسلمين عن نصرته فأجابه العلماء والأجناد برسالة حملوه فيها تبعة الفرار من المسؤولية والتزو على العرش الذي عهد محمد الشيخ به للأكبر فالأكبر تبعا لتقاليد الملك العضود في صدر الإسلام، وسار الأجناد البرتغاليون في حركة بطيئة بعرباتهم ومعداتهم الثقيلة فوصلوا إلى أرباض القصر الكبير في ظرف زهاء عشرة أيام، واستنفر أبو مروان في هذه الأثناء جيش فاس بقيادة أخيه لمواجهة هذا الزحف الأجنبي الذي نصح المتوكل تعزيزه باحتلال تطوان والعرائش للاستعانة سلفا بقبائلها، ولكن أبا مروان استعجل سبستيان بالتحدي(2) فعبر وادي المخازن وعسكر قبالته وبادر أبو مروان غب وصوله بنسف قنطرته فانحبس البرتغاليون بين نهرين وتعذر عليهم كل تراجع إلى الخلف لانعدام المشاريع في الوادي. وانتظم الرجالة المسيحيون ضمن مربع قبعت في قلبه قوافل عربات المؤن والذخيرة، ووقف الرماة في الطليعة والفرسان ميمنة وميسرة، وواجههم المسلمون في نفس النسق في شكل هلال مسرح الأجنحة للانقضاض من الجوانب عند الاقتضاء. وبدأت المعركة في الهجيرة (متم جمادى الأولى عام 986هـ—4 غشت 1578م) وأشعة الشمس تبهر عيون العدو ولهيبها يلفح وجههم وأسنة الرماح وقذائف الأنفاض تهددهم من أمام والمياه الزاخرة من خلف،

---

1) بلغ عدد الجنود البرتغالية 125.000 حسب نزهة الحادي والمنتقي المقصور و 60.000 حسب الذخيرة السنية ونحو 200 مدفع أما المراجع الأجنبية فإنها تتحدث عن 14.000 راجل و 2000 فارس و 36 مدفعا مقابل 50.000 راجل في الجيش المغربي و 22.000 فارس معظمهم أعراب من الخلط وغيرهم و 1.500 من الرماة و 20 مدفعا.

2) تقول النزهة بأن أبا مروان كتب رسالة إلى الأمير البرتغالي يستفز نخونه للمجيء إلى وادي المخازن وكانت مكيدة من الخليفة السعدي.

وسارع جيش أبي العباس إلى الهجوم فانقضت ميمنته على مؤخرة العدو بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة فتهالك وانحازت الفلول الفارة فغرقت في اليم وفي ضمنها سبستيان وللمتوكل ولفظ أبو مروان نفسه الأخير بعد استعصاء مرضه فسلخت جثة المتوكل وحشيت تبنا وطيف بها في المدن، وسلمت أشلاء الأمير البرتغالي من طرف الأمير أبي العباس إلى ذويه ونقل رفات أبي مروان الشهيد إلى مقبرة الأسرة بمراكش وبويع أحمد خليفة، فخف للقبض على زمام الأمر بعد استتباب النصر وإعلان موت السلطان بينما تسارعت الفلول المهزومة لاجئة لأصيلا حيث بقي الأسطول رابضا.

وإذا كانت هذه المعركة الفاصلة فترة عارضة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والإسلام — كما يقول طيراس — فإنها كانت انتفاضة شعبية ضد الصليبية المعتدية، أنزلت الضربة الأخيرة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال دولة البرتغال لأن دون سبستيان مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة، ولكن الأساطير انبثقت لتحيط هذا الجانب أو ذاك بهالة من القداسة ربما كان الكثير منها بعيدا كل البعد عن الواقع الذي لم يكن أكثر من معركة قضت على الوجود البرتغالي بالمغرب كما قضت (وقعة طريف) البسيطة العادية على الوجود المريني في الأندلس، ولكن صدمتها كانت من مظاهر عناية الله بالدولة الناشئة التي خطبت ودها الدول العظمى لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالشيء الهين ولا بالشيء الذي يمر دون أن يثير إعجاب العالم مهما تكن حقيقة الأوضاع والملابسات وأشع هذا الانتصار ففتح عهدا جديدا في علائق النصرانية والإسلام.

*